
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

ظاهرة التصوف في مغرب ما قبل الحماية

علي علام

1. مفهوم التصوف :

إن كتب التصوف مليئة بعدة تعاريف للصوفي والمتصوفة، وهذه التعاريف على اختلاف صيغتها، تنتهي إلى مقصد واحد هو العزوف عن الدنيا والإقبال على العبادة والزهد في الملذات.

فالصوفي «هو من صفا من الكدر، وامتلأ من الفكر، وانقطع إلى الله من البشر واستوى عند الذهب والمدر».[1] وبالتالي فالمتصوفة هم «السالكون لطريق الله تعالى خاصة وأن سيرتهم أحسن السير وطريقتهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به».[2]

أما التصوف، فيعرفه أبو الحسن الشاذلي المتوفى عام 656هـ بأنه «تدريب النفس على العبودية وردها لأحكام الربوبية».[3] وخير العبادة عند الشاذلي أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.[4]

ويذكر ابن خلدون أن التصوف ليس بدعا في العلوم الإسلامية، بل هو وليد النشاط العام الذي طال العقل السليم. «فلما كتبت العلوم ودونت وألف الفقهاء في الفقه وأصوله والكلام والتفسير وغير ذلك، كتب رجال من أهل هذه الطريقة في طريقهم، فمنهم من كتب في الورع ومحاسبة النفس على الاقتداء في الأخذ والترك كما فعله القشيري في كتاب الرسالة، والسهروردي في كتاب عوارف المعارف وأمثالهم، وجمع الغزالي رحمه الله بين الأمرين في كتاب الأحياء، فدون فيه أحكام الورع والاقتداء، ثم بين آداب القوم وسننهم وشرح اصطلاحاتهم

في عباراتهم، وصار علم التصوف في الملة علما مدونا بعد أن كانت الطريقة عبادة فقط، وكانت أحكامها إنما تتلقى من صدور الرجال كما وقع في سائر العلوم التي دونت بالكتاب من التفسير والحديث والفقه والأصول وغير ذلك»[5].

2. الظاهرة الصوفية في المجتمع المغربي :

يعتبر المغرب بلدا للتصوف الشعبي بامتياز، وذلك لما يتوفر عليه من العدد الهائل من الأولياء والصلحاء.

وهذه الظاهرة تظهر بشكل جلي في مختلف المناطق المغربية الحضرية منها والقروية، فالمغرب يوصف كما يذكر بول باسكون ـ الذي وقف باندهاش كبير على ظاهرة تقديس الأولياء والأضرحة ـ «ببلد المائة ألف ولي»[6].

ويظهر التصوف الشعبي أيضا من خلال الطرق الصوفية المنتشرة في كل أنحاء المغرب وخصوصا بمدينة فاس[7]،إذ يبدو من خلال كتاب «سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس»[8] أنه توجد في جميع الأحياء تقريبا، زاوية أو أكثر، حيث نجد في حي البليدة مثلا زاوية سيدي أحمد التجاني، وزاوية مولاي العربي الدرقاوي، وزاويتان صقليتان، وبحي القلقايين توجد الزاوية الفاسية وبحي المخفية توجد زاوية درقاوية أخرى، وبحي الطالعة توجد زاوية قاسم بن رحمون التي يجتمع فيها الشرفاء الوزانيون، وبحي وادي الزيتون توجد زاوية سيدي علي صالح الأندلسي التي يجتمع فيها أتباع الشيخ التباع وأكثرهم أندلسيون.

لقد شكلت هذه الزوايا كما يبدو من خلال الكتاب المذكور، دوائر متصلة ومتتابعة تدور كلها حول زاوية الأشراف أو الضريح الإدريسي.

وما يؤكد وجود الأولياء بكثرة في هذه المدينة هو ما ورد عند صاحب السلوة عند حديثه عن أولياء خارج باب الفتوح من المدينة، إذ أن هذا الخارج يشتمل لوحده على صلحاء وعلماء لا يحصون كثرة وعددا، وذكر محمد بن جعفر الكتاني أنه «... لا يكاد يخلو شبر منه من ولي الله تعالى وكثير من الأخيار»، ويشير إلى أنه إذا خرج الزائر إلى هذا المكان «فعليه أن ينزع نعليه ويخرج حافيا تواضعا لله تعالى وأدبا مع أهله، فإن فيهم الأقطاب والأوتاد والأفراد وأهل المعرفة الكبرى بالله تعالى ونحوهم، وقد بلغنا عن بعض الأكابر أنه كان يقول في رجال هذا الخارج كادوا أن يكونوا أنبياء وهو كذلك حشرنا الله في زمرتهم وأعاد علينا من بركتهم آمين».[9]

يقدم محمد بن جعفر الكتاني في كتابه «سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس» صورة عن بعض المظاهر والظواهر الصوفية التي كانت متفشية بمدينة فاس، وهي تعكس طبيعة البنية الفكرية ليس فقط لسكان مدينة فاس وإنما لسكان المغرب عموما.

وتتمثل هذه البنية أولا في : الإيمان القوي بدور الأولياء (أحياء وأموات) في حياة الناس، لذلك نجد الكتاني يركز على التبرك بذكر الصالحين إذ يقول : «اعلم هداك الله تعالى أن أحسن ما يطرق الأسماع ويحسن الإلمام به والالماع، ويطلب خبره وحديثه ويقصى منه قديمة وحديثة، محاسن أهل الله وشمائلهم وفواضلهم السنية وفضائلهم ومزاياهم العظيمة الفاخرة ومواهبهم الجسيمة الوافرة، إذ بذكرهم تتنزل الرحمات وتنزل سوابغ النعمات وتستمطر سحائب البركات...».[10]

واستشهد الكتاني بالحديث الذي ذكره عدد من المؤلفين والذي يذكر أن ذكر الصالحين كفارة للذنوب، ونقل عن العلامة ابن زكري المتوفى بفاس سنة 1144 هـ قوله أن الأولياء «عبيد الله القائمون بأمره

ونهيه الدالون عليه، فالمقصود من تعظيمهم تعظيم الله ومن الثناء عليهم الثناء على الله..».[11]

واجتهد الكتاني في إيراد مجموعة من الآراء التي تتفق على أن ذكر الأولياء والصالحين، وذكر كراماتهم كلها فيها فوائد كثيرة للإنسان، ويروي عن بعض العلماء قولهم: «إذا ذكر الصالحون نزلت الرحمة ويخلق الله من هذه الرحمة سحابة لا تمطر إلا في أرض الكفار، وكل من شرب من مائها أسلم»[12]. ونقل عن الإمام الغزالي قوله أنه إذا تعذرت رؤية هؤلاء الصلحاء ومرافقتهم، فلا شيء أنفع للقلوب والنفس من سماع أحوالهم ومطالعة أخبارهم.[13]

ثم استشهد بالأبيات الشعرية التي ذكرها العلامة ابن زكري في شرح النصيحة والتي يشير فيها إلى أن الأولياء قوم كرام لا ينكب من أقبل عليهم ولا يندم من اعتمد عليهم، ومن هذه الأبيات:

فنحن كلاب الدار طبعا ولم نزل نوالي مواليها ونحرس بابها

نسبن لهم إذا كانوا أهل عناية فإن كرام العُرْب تحمي كلابها

إذا طردت يوما كلاب قبيلة فقومي كرام لا تهين كلابها.[14]

ليخلص في الأخير إلى أن ذكر الصالحين وجمع أخبارهم وأحوالهم وسيرهم كلها خصال حميدة تقوي إيمان المريدين وتدفعهم لطلب المزيد، ولذلك ملأ الصوفية كتبهم بها وانكبوا على جمعها وتدوينها.

العنصر الثاني الذي يميز النسق الفكري المغربي يعكسه الكتاني في «الزيارة للأضرحة وحكمها وفوائدها».

فهو يذكر أن زيارة الأولياء مستحبة إن سلمت من فعل محرم أو مكروه واستشهد بمجموعة من الآراء التي تتفق مع رأيه هذا. ونقل عن

أبي حامد الغزالي قوله : «ويدخل في السفر لأجل العبادة زيارة قبور الأنبياء وقبور الصحابة والتابعين وسائر العلماء والأولياء وكل من يتبرك بمشاهدته في حياته يتبرك بزيارته بعد وفاته».[15]

ويرد الكتاني على الذين يعتبرون أن درجة العلم أفضل من درجة الولاية، بأن المقصود بهذا العلم هو الذي «يكون مصحوبا بالخشية والتواضع والإنابة والتقوى المهتدي بصاحبه في الدين والدنيا لا مجرد العلم»، وأن الولاية هي «ولاية الصلاح والانقطاع إلى العبادة والطاعة، لا ولاية التخصيص والتقريب والتعريف»[16]، واعتبر أن العارفين بالله (الصوفية) أفضل من العارفين بأحكام الله (العلماء) معتمدا في ذلك على آراء مجموعة من الفقهاء والعلماء[17]، ومن بينهم الشيخ أبو العباس ابن عجيبة الذي فسر قوله تعالى : «يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات...» بأن العلماء المخلصين الذين عرفوا الله عن طريق البرهان «تلي درجتهم درجة الأولياء الذين هم أهل الشهود والعيان، ثم الصالحون الأبرار ثم عامة المومنين ومن قال غير هذا فهو جاهل بمرتبة الولاية»[18].

ويذكر الكتاني أن قبور الصالحين لا تخلو من بركة، وأن زائرها والمسلم على أهلها والقارئ عندها لا يرجع إلا بأجر وخير. وقد يجد لذلك إمارة تبدو له أو بشارة تتكشف له.[19] واعتبر أن من أعظم نعم الله على الإنسان وجود هؤلاء الأولياء وظهورهم وظهور أضرحتهم، وفي ذلك من المنافع والفوائد ما لا يدخل تحت حصر، ذكر منها وجود البركة بالأرض وكثرة النفع، ومنها أنهم هم الملجأ الذي يلجأ إليه كل من نزل به أمر أو شدة، ومنها أنهم يشفعون في الآخرة كل قدر رتبته مع الله عز وجل، «وقد جاء أن الأنبياء والرسل والملائكة والعلماء والشهداء والأولياء، وآل البيت يشفعون يوم القيامة، بل ورد أنه ما من مومن إلا وله شفاعة»[20].

إن المتصوفة يبنون نسقهم الفكري على التسليم والتصديق في الأولياء للحصول على البركة والنفع، ويرون أن الاعتقاد أصل في كل خير والانتقاد أصل في كل شر[21]، ويقول الكتاني في هذا الصدد : «إذا عمل الزائر نيته في محل وكانت صادقة، فإنه ينتفع من ذلك المحل لا محالة ولو كان صاحبه في نفس الأمر ليس كما يظن الناس فيه، وعلى هذا فإذا اشتهر شخص في حياته بالولاية وكان خاليا منها في نفس الأمر، ثم إنه بعد وفاته دعته شهرته إلى القبة والدربوز والكسوة وصار الناس يزورنه، فإنهم ينتفعون بزيارته بحسب نياتهم ومقاصدهم... »[22].

ولكن، لكي تكون هذه الزيارة صحيحة وتعود على صاحبها بالفوائد والبركة، حدد لها الكتاني مجموعة من الشروط التي ينبغي احترامها وتطبيقها وتتمثل في كيفية الجلوس أمام القبر، وما ينبغي للزائر أن يقرأه. وقد أثار الكتاني مسألة القراءة على القبور، وما مدى صحتها من الوجهة الشرعية؟

وتمكن من خلال إيراد مجموعة من الشهادات لعلماء الإسلام من التأكيد على مشروعية هذه القراءة وجوازها عملا بسنة السلف الصالح وقد وردت أحاديث كثيرة في الترغيب في قراءة بعض القرآن وإهداء ثوابه وأجره لمطلق الأموات، فكيف بالأولياء والعلماء.[23]

واستنكر الكتاني بعض الظواهر والبدع التي كانت متفشية في قبور الأولياء والصلحاء، منها التمسح بالقبر وتقبيله ومسه واعتبر ذلك من فعل النصارى ومن البدع المستحدثة، ودعا إلى عدم الانحناء للقبر والسجود له، والمبالغة في الانحناء ودعا كل من له القدرة لمنع الناس من فعل ذلك وتأديبهم عليه. واجتهد في إيراد مجموعة من شهادات علماء الإسلام التي تحرم ذلك.[24]

ومن البدع التي اعتبرها الكتاني مكروهة استنادا إلى أقوال العلماء، الصلاة على القبر، أما إذا صلى شخص على قبر ولي أو إليه إذا كان في جهة القبلة بقصد «التقرب إلى الله تعالى في جوار صاحبه لفضله فلا بأس به، بل هو مطلوب، وقد صرح الفقهاء بجواز الصلاة في المقبرة وإليها إذا كانت طاهرة وتأولوا النهي عن ذلك».[25] ثم ذكر أن من اتخذ مسجدا بجوار صالح أو صلى في مقبرته وقصد به التبرك بآثاره لا التعظيم له، فلا حرج عليه، واستشهد بمدفن إسماعيل عليه السلام في المسجد الحرام، ليصل من وراء ذلك إلى إظهار أن الصلاة بسمجد الشرفاء حيث ضريح مولاي إدريس جائزة.[26] واعتبر أن الصلاة في هذا المسجد أفضل من الصلاة في غيره من مساجد فاس «لأن الصلة تتفاوت في الفضيلة باعتبار كثرة الأعداد من المصلين وباعتبار الإمام الصالح أو المكان الشريف الأفضل».[27]

ومن بين العادات التي كانت منتشرة بهذه المدينة الإدريسية، أن الناس كانوا إذا قدموا لزيارة الضريح الإدريسي، يأتون إليه حفاة، ومنهم من كان يقبل عليه على ركبتيه ويديه إلى أن يصل إلى الضريح[28]، مما يؤكد قوة الإيمان والاعتقاد في بركة هذا الولي، الذي كان البعض يسميه «مول البلاد».[29]

أما العنصر الثالث الذي يميز البنية الفكرية المغربية، فيتمثل في التبرك بتراب قبور الصالحين، إذ كان الناس يحملونه للتبرك به، واستشهد الكتاني بآراء العلماء الذين يؤكدون جواز ذلك، ودليلهم في هذا، «أن الناس يحملون تراب قبر سيدنا حمزة ابن عبد المطلب في القديم من الزمان، وكان الناس بمدينة فاس يحملون تراب ضريح الشيخ أبي يعزى وضريح الشيخ أبي غالب الصاريوي دفين حومة صاريوة داخل باب الفتوح من فاس، للاستشفاء من الأمراض والقروح المعضلة».[30]

واستشهد برأي الونشريسي المتوفى عام 941 هـ، والذي أكد في نوازله «جواز أخذ التراب منهم، يعني من الأولياء، للاستشفاء، عملا بسنة السلف في قبر حمزة رضي الله عنه».[31]

العنصر الرابع في هذه البنية الفكرية المغربية يتمثل في التوسل بالأولياء، ويرى الكتاني أن زائر الأموات لا بد له من الدعاء والتضرع إلى الله تعالى والتوسل إليه بهم وطلب ما يريده منه بجاههم، ومن الآداب التي ينبغي اتباعها أن لا يرفع الزائر صوته وأن لا يطلب ما لا ينبغي، وأن يعزم المسألة فيما يطلبه، وأن لا يتكلف السجع فيه ونحو ذلك.[32] ولا ينبغي للزائر أن يتوسل إلى الولي المزور بالله تعالى، بل يعكس ويتوسل إلى الله تعالى به.

واعتبر أن هؤلاء الأولياء قادرون على قضاء الحوائج «فمن أراد حاجة فليذهب إليهم ويتوسل بهم فإنهم الواسطة بين الله تعالى وبين خلقه».[33] ورأى أن من الأسباب الموجبة للانقطاع عن الله عز وجل الطارئة على هذه الأمة من غير شعور لأكثرهم بها، التوسل إلى الصالحين بالله عز وجل ليقضوا الحاجة، ومن بين ما يقوله الزائر : «قدمت لك وجه الله يا سيدي فلان ألا ما قضيت لي حاجتي». وسبب هذا «الجهل العظيم الصادر من الزائرين، فهم يعتقدون في الأولياء أنهم يضرون وينفعون ويعزون ويذلون ويعطون ويعزلون ويولون...، إلى غير ذلك مما هو مختص بالله سبحانه وتعالى».[34]

ومما يردده الزائر كذلك : «أسألك بالله يا سيدي فلان ألا ما شفيتني أو ألا ما رفعت عني هذا الضرر أو ألا ما أعطيتني كذا أو ألا ما سهلت علي كذا، إلى غير ذلك من سؤالاتهم الفظيعة».[35]

العنصر الخامس في هذه البنية يتمثل في الذبح على ضرائح الأولياء، فالكتاني يرى أن جوازه متوقف على اعتقاد الذابح، فإن

اعتقد أن التأثير في قضائها لذلك الولي فقط، فمذبوجه حرام، وإن اعتقد أن التأثير في قضائها لله ولذلك الولي فمذبوحه مكروه، وإن اعتقد أن التأثير في قضائها لله وحده وإنما ذبح على ذلك الولي ونوى أن ثواب مذبوحه له لجريان عادة الله بقضاء حاجة كل من فعل ذلك، فمذبوحه لا بأس بأكله، وأما ما يذبح للجان، «فإن لم يذكر اسم الله عليه، كما يفعله البعض عند الذبح لهم، لم يوكل مطلقا لقوله تعالى : «ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق». وحكمه حينئذ حكم الميتة، وإن ذكر اسم الله عليه، نظر لقصد الذابح، فإن قصد اختصاص الجان بانتفاعه بثواب المذبوح كما لو كان الذابح يعتقد فيه أنه من صالحي الجن وأراد نفعه بالثواب المذكور ليستجلب به خاطره ويكون وسيلة بينه وبين الله في قضاء مرغوبه وحصول مطلوبه، كره أكل ذبيحته لأن صورتها صورة المذبوح لغير الله، لكون الجن مما عبد من دون الله سبحانه ولارتكاب صاحبها للنهي لأنه عليه السلام نهى عن الذبح للجان مطلقا».[36]

واستشهد الكتاني بآراء بعض العلماء الذين نصوا على أن النبي(ص) نهى عن الذبح للجان، لأن الذبح لهم يؤدي إلى اعتقاد ما لا يجوز فيهم، بل ربما أدى إلى الكفر، وخلص الكتاني إلى أن ما ذبح للكنز أو للجن لا يجوز أكله.

ومن الظواهر التي كانت متفشية في المجتمع والتي وقف عليها الكتاني هي منح الهدايا والعطايا للأولياء، وهي ظاهرة لم يتقبلها الكتاني، ونقل عن الشيخ عبد العزيز الدباغ[37] قوله : «ومما يدلك على كثرة المنقطعين وزيادة الظلام في ذواتهم أنك ترى الواحد يخرج من داره بعشرين موزونة مثلا، ويذهب بها إلى ضريح ولي من أولياء الله تعالى، فيطرحها عنده ليقضي له حاجته، وكم من فقير محتاج يلقاه في الطريق ويطلب منه متاع الله في سبيل الله لوجه الله، فلا

يعطيه درهما واحدا حتى يبلغ للولي فيطرحها عند رأسه، وهذا من أقبح ما يكون.. ».[38] ثم يذكر نقلا عن عبد العزيز الدباغ دائما، أنه لاحظ أن ما أهدي للأولياء في يوم واحد من باب تلمسان إلى الساقية الحمراء، ثمانون دينارا، ومن الغنم ثلاثمائة وستون شاة، ومن البقر اثنان وسبعون ثورا، أخرج هذا كله في يوم واحد للصالحين، وما أخرج لله تعالى في ذلك اليوم عشرة دراهم فقط، واعتبر ذلك «سببا من الأسباب الموجبة للانقطاع عن الله عز وجل الطارئة على هذه الأمة من غير شعور لأكثرهم بها».[39]

وتدل هذه الشهادة على أن هؤلاء الأولياء كانوا يحصلون على أموال ضخمة من المريدين ومن عامة الناس الذين كانوا يعتقدون فيهم ويؤمنون بقدرتهم على جلب الخير والبركة، ولم تكن هذه الظاهرة تقتصر على مدينة فاس وحدها، بل عمت جميع مناطق المغرب بمدنه وبواديه.[40]

ويتمثل العنصر السابع والأخير في هذه البنية في إقامة المواسم للأولياء والصالحين. وقد ذكر الكتاني أن إقامة المواسم للأولياء عادة متبعة في كثير من الأقطار والأمصار، ويرى أنها لا تخلو من المنكرات والأمور المحرمة شرعا، ومع ذلك يرى أن النبي (ص) أو غيره ممن يرجى نفعه يحضرها[41]. وبعد أن تساءل عن حكم هذه المواسم، انتهى إلى أنها مباحة، ويجب على من له القدرة أن يحارب المفسدين وأصحاب المنكرات حتى تكون سالمة من كل ما لا يرضي الله ورسوله وسائر المومنين.

ويذكر أن ما ذكره البعض من حضور النبي (ص)، وغيره من الأولياء في هذه المواسم «لا تبعد صحته سيما وقد أخبر به من ثبتت ولايته واتضحت عنايته».[42]

وذكر أن جميع أوليا ء الله من البحر المحيط وسائر الجبال والبلاد، يحضرون مولد القطب الشريف أحمد البدوي[43] المتوفى عام 576هـ. واستشهد في ذلك بما ذكره الشيخ حمدون بن الحاج المتوفى عام 1232 في ميميته[44] :

مـازال مولده تبدو عـجائبه   لمن يسير له من بعد أو أمم

وكيف لا ورسول الله يحضره   والأنـبياء ومـا لهم الدجم

خلاصة :

إن هذه العناصر التي أوردناها، تمثل الأسس الفكرية التي كانت تتحكم في الإنسان المغربي، وتوجه تفكيره وإسلامه. ويمكننا أن نطرح حولها بعض الأسئلة من قبيل :

- هل الاستغاثة بالمقبور الصالح لكشف الغمة وتفريج الكربة وجلب المسرة سنة أم بدعة؟

وفي ما يخص تقديم الهدايا للولي الميت، يمكن أن نتسا ءل : هل بإمكان الميت إفادة الحي ومساعدته من خلال قضاء بعض أو كل حاجياته؟

وهل من السنة الاستغاثة بمن زكاهم معارفهم وأقاربهم، فأقاموا لهم أو عليهم قبابا أو مشاهد؟

وفي ما يخص الذبائح التي تتم عند قبور الأوليا ء، يمكن أن نتسا ءل : هل يمكن اعتبارها قربانا لله عز وجل؟ أم أنها محاولة لاسترضا ء المقبور الصالح لكي يلبي رغبة الزائر أو رغباته؟ وفي هذه الحالة، هل يحل الأكل من المذبوح لولي ذي كرمات مفترضة هالك؟...

ويظهر أن هذه العناصر والمظاهر التي كانت متفشية في المجتمع

المغربي في مختلف مراحله التاريخية، كانت مثار انتقاد الحركة الوهابية والتي ظهرت بالحجاز في منتصف القرن 18م، ثم انتقلت أفكار هذه الحركة إلى المغرب في بداية القرن 19 عن طريق الحجاج المغاربة، إذ كان هؤلاء أول من نقل أخبار الوهابيين إلى المغرب، وهي تحكي الشدائد التي قاسى منها الركب المغربي والمحن التي اعترضته خلال إقامته بالحرمين الشريفين.[46]

إن مبادئ الوهابية تقوم على أساس رفض تقديس الأولياء وتكريم قبورهم، حيث دمروا الأضرحة وحرموا السحر، ورفضوا التوسل والتوسط والشفاعة، وهو ما أثار معارضة الفئات الشعبية والعلماء على حد سواء.

لقد أخذ السلطان مولاي سليمان (1792-1822) بأفكار ومبادئ الحركة الوهابية، واستنكر هذه الظواهر التي اعتبرها من البدع، فقد انتقد ظاهرة المواسم بشدة فقال : «واتركوا عنكم البدع بدع المواسم التي أنتم متلبسون...».[47]

ثم دعا إلى إتباع السنة، فيعظ ويوجه ويبشر وينذر فيقول : «فمالكم يا عباد الله ولهذه البدع؟ أأمنا من مكر الله؟ أتلبيسا على عباد الله؟ أم منابذة لمن النواصي في يده، أم غرورا بمن الرجوع بعد إليه، فتوبوا واعتبروا وغيروا المناكر واستغفروا (...) وعليكم بالصراط المستقيم الذي هو كتاب الله وسنة رسوله (ص)، وليس الصراط كثرة الرايات والاجتماع للبيات ! وحضور النساء والأحداث وتغيير الأحكام الشرعية بالبدع والأحداث والتصفيق والرقص وغير ذلك من أوصاف الرذائل النقص (...)، فإياكم عباد الله، ثم إياكم والبدع فإنها تترك مراسم الدين خالية خاوية والسكوت على المناكر يحيل رياض الشرائع ذابلة ذاوية...».[48]

وختم السلطان مولاي سليمان منشوره بهذا التحذير لكل من

يشارك في موسم أو يحدث بدعة في الشريعة المحمدية، إذ يقول : «وها نحن عباد الله أرشدناكم وحذرناكم وأنذرناكم، فمن ذهب بعد لهذه المواسم أو أحدث بدعة في شريعة نبيه أبي القاسم، فقد سعى في هلاك نفسه وجر الوبال عليه وعلى أبناء جنسه وتله الشيطان للجبين، وخسر الدنيا والآخرة...».[49]

وبتنبيه لبعض جوانب الفكر الوهابي، سعى السلطان مولاي سليمان إلى إصلاح عقيدة العامة التي أصابها الانحطاط بسبب ابتعادها عن السنة، وتفشي البدع التي كانت تشكل الأرضية الملائمة لانتشار الطرق الصوفية والزوايا، ثم إنه استخدمها «كسلاح إيديولوجي»[50] لضرب ومحاربة الطرقيين الذين كانوا يشكلون خطرا على سياسة المخزن، وبالتالي فإن الوهابية لم تكن مقبولة في المغرب لذاتها، بل من أجل وظيفتها الدينية والسياسية، والدليل على هذا، أن السلطان مولاي سليمان كان من المساندين للطريقة التجانية.[51]

ويلاحظ أنه رغم تهديدات هذا السلطان وجهوده من أجل وضع حد للخرافات والمعتقدات الخاطئة المنتشرة في المجتمع؛ فإن هذه الأخيرة ظلت متفشية حتى بعد عهد السلطان مولاي سليمان.

الهوامش :

(1) البشير الريسوني : «التصوف المغربي وأثره في تجديد التصوف السني بالمشرق» (أبو الحسن الشاذلي نموذجا) ضمن ملتقى الدراسات المغربية الأندلسية، تيارات الفكر في المغرب والأندلس والروافد والمعطيات، منشورات كلية الآداب والعوم الإنسانية، تطوان 1993، ص 459.

(2) البشير الريسوني، المرجع نفسه، ص : 460.

(3) إبراهيم حركات : السياسة والمجتمع في العصر السعدي، دار الرشاد الحديثة، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، 1987، ص : 332.

- إبراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ، دار الرشاد الحديثة، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، ج 2، الطبعة الأولى، 1984، ص : 89.

- نور الدين محمد دنياجي : «أبو الحسن الشاذلي : مقاربة عامة لخصوصيات مشتركة بين المغرب ومصر»، ضمن ندوة التواصل الصوفي بين المغرب ومصر، جامعة الحسن الثاني، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة الندوات، رقم 9، المحمدية، السنة 2000، ص :38.

(4) نور الدين محمد ذنياجي، المرجع نفسه، ونفس الصفحة.

(5) عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، 1981، ص 613.

(6) بول باسكون : «الأساطير والمعتقدات بالمغرب»، ترجمة مصطفى المسناوي، مجلة بيت الحكمة، العدد الثالث، السنة الأولى، 1968، ص 96.

- عز الدين الخطابي : سوسولوجيا التقليد والحداثة بالمجتمع المغربي، دراسة تحليلية لدينامية العلاقة الاجتماعية، منشورات عالم التربية، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، الطبعة الأولى، 2001، ص : 82.

(7) روجي لوطورنو : فاس قبل الحماية، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986، ج 2، ص : 867.

(8) كتاب ألف في أواخر القرن 19، وصاحبه هو محمد بن جعفر الكتاني المتوفى عام 1927، يراجع علي علام، النسق الفكري والاجتماعي لنخبة سلوة الأنفاس، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ نوقشت بفاس سنة 2002.

(9) محمد بن جعفر الكتاني : سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بمدينة فاس، طبعة حجرية، فاس، 1316/1898-1899، ج 2 ص : 163.

(10) محمد بن جعفر الكتاني، سلوة الأنفاس، ج 1، ص : 11.

(11) نفسه، ج 1، ص : 12.

(12) نفسه، ج 1 ص : 14.

(13) نفسه، ونفس الصفحة.

(14) نفسه.

(15) نفسه، ج 1 ص: 16.

(16) نفسه، ج 1، ص : 18.

(17) نفسه، ج 1 ص : 19.

(18) نفسه، ونفس الصفحة.

(19) نفسه، ج 1، ص : 20.

(20) نفسه ص : 26.

(21) عبد اللطيف الشاذلي : التصوف والمجتمع، نماذج من القرن العاشر الهجري، منشورات جامعة الحسن الثاني، سلسلة أطروحات ورسائل، 4، 1989، ص : 101.

(22)محمد بن جعفر الكتاني، سلوة الأنفاس، ج 1 ص : 29.

(23) نفسه، ج 1 ص : 34.

(24) نفسه، ج 1 ص : 47.

(25) نفسه، ج 1 ص : 49.

(26) نفسه ج 1، ص : 50.

(27) نفسه نفس الصفحة.

(28) نفسه ج، 1 ص : 83.

(29) H.Gillard : Fés, une ville de L'islam, 1906 : p 175.

(30)محمد بن جعفر الكتاني، سلوة الأنفاس، ج 1 ص : 51.

(31) نفسه.

(31) نفسه.

(32) نفسه، ج 1، ص : 52.

(33) نفسه، ج 1، ص : 53.

(34) نفسه، ونفس الصفحة.

(35) نفسه.

(36) نفسه، ج 1 : 58.

(37) متصوف من الأشراف الحسنيين، ولد بفاس وتوفي عام 1132 هـ/1720م، كان أميا لا يقرأ ولا يكتب، ولأتباعه مبالغة في الثناء عليه ونقل الخوارق عنه، ينظر : خير الدين الزركلي : الأعلام، ج 4، ص. 28.

(38)محمد بن جعفر الكتاني، سلوة الأنفاس، ج 1، ص. 62.

(39) نفسه، ص. 62.

(40) أحمد التوفيق : المجتمع المغربي في القرن 19 (اينولتان 1850 ـ 1912)، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، الطبعة الثانية، 1893، صص. 424 ـ 425.

(41)محمد بن جعفر الكتاني، سلوة الأنفاس، ج 1 ص . 62.

(42) نفسه، ج، 1 ص . 63.

(43)ولد بفاس وبها تعلم، ثم رحل إلى الشرق فحج بالبلاد وأقام بالحرمين مدة، قم زار الشام والعراق ثم قصد مصر واستقر بها ينشر علومه ومعارفه، فاشتهرصيته وذاع أمره، وأقبل عليه الناس من كل مكان وبقي بها إلى أن مات، وضريحه مشهور بطنطا. ينظر : سوف الكتاني : «جامعة القرويين ودورها في التواصل العلمي بالمغرب ومصر، «مجلة المناهل، ع 39، 1990.

(44) مفسر ومحدث وصوفي، تولى التدريس بمدينة فاس، وكان متضلعا في عدة علوم ألف تآليف عديدة، ترجم له الكتاني في سلوة النفاس، ج 3، صص. 5 ـ 6.

(45) محمد بن جعفر الكتاني، سلوة الأنفاس، ج 1، ص. 63.

(46) محمد المنصور : «الحركة الوهابية وردود الفعل المغربية عند بداية القرن 19»، ضمن الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن 19، منشورات كلية الآداب، بالرباط 1986، ص .178.

(47) أبو القاسم الزيارتي : الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا، تحقيق عبد الكريم الفيلالي، دار نشر المعرفة، الرباط، الطبعة الثانية، 1991، ص. 467.

(48) أبو القاسم الزياني : الترجمانة...، ص. 469.

(49) نفسه، صص. 469 ـ 470.

(50) محمد عابد الجابري : «تطور الانتلجانسيا المغربية : الأصالة والتحديث في المغرب»، ضمن كتاب المغرب المعاصر : الخصوصية والهوية... الحداثة والتنمية، المركز الثقافي العربي، البيضاء، الطبعة الأولى، 1988، صص. 14.13.

(51) نفسه.